ادب الاعمار النفسية

بقلم عبد الله عبد الدايم

من مشكلات الأدب التي تظل جديدة والتي لا يفنى الحديث عنها معرفة نشأة الألوان المختلفة من الادب وظروف ولادتها والعوامل الشتيتة التي دعت إلى خلقها . فتقاد الأدب ما فتر لهم قلم أمام البحث عن الاصول التي يمكن ان تُرد إليها نشأة لون معين من الأدب ، أو بزوغ أديب من الأدباء . والنظريات لم يتطرق اليها وهن حين اصطرعت حول تغليب بعض هذه الأصول على بعض وحين جهر بعضها برد هذه الأصول جميعاً الى اصل واحد ، هو مثلا البيئة والعرق عند بعضهم (على نحو ما يرى تين Taine ومدرسته) أو حياة الأديب عند آخرين (على نحو ما يرى « سانت بوف Sainte Beuve) .

ولا شك أن هذه البحوث المتصلة بولادة الأدب ومحاض الأدباء قد أدركت تحولاً هاماً في تاريخها يوم دخلتها البحوث النفسية التي حاولت أن تكشف خاصةً عن العناصر المتصلة ببنية الأديب النفسية بل بكيانه النفسي والجسدي معاً . ومثل هذه البحوث أصبحت مبثوثة ذائعة في جميع تلك المحاولات التي جهدت أن تستند في دراستها نتاج الشعراء والقصاصين والاجيال الادبية المختلفة والمدارس الادبية الحديدة ، الى دراسة حياة الأدباء او تحليل حياتهم العاطفية العميقة ولا سيما حياتهم الجنسية بمعناها الواسع (على نحو ما فعلت مدرسة التحليل النفسي) أو استكناه التفاعل الذي يتم بين الكاتب والحضارة الاجتماعية التي يعيش فيها .

غير أن ثمة ميداناً لم توفّه هذه البحوث النفسية حقّه من الدراسة، وهو عندنا عنصر جدير بأن يقام له وزن عند التعرض لمشكلة أصل النتاج الأدبي . ونعني بهذا الميدان ما نحب ان نسمّيه « أدب الاعمار النفسية » . فالدراسات النفسية الحديثة مجمعة كلها على افراد خصائص ذاتية يختص بها كل عمر من أعمار الانسان : من طفولة ومراهقة وشباب وكهولة وشيخوخة . وهي لا تني تحدثنا عن المواهب التي تتفتح أو تكمد من سن الى سن، والميول التي يبعثها طور من العمر محدود ويدفنها طور آخر . غير أن هذه البحوث النفسية ، على غناها وقوتها ، والبحوث الأدبية القائمة عليها ، لم تحدثنا إلا الحديث العابر القصير عن النتاج الأدبي الذي يختص به كل طور من هذه الأطوار، وعن أثرها في خلق بعض الادباء وبعض الحركات الادبية . في حين ان في مثل هذا الميدان مجالاً ثرّاً جديراً بان يهدينا إلى كثير مما غمض من معاني النتاج الادبي والفني ،وبان يعرّفنا كثيراً من مجاهله . وإن بعض الومضات العابرة التي نلمحها خلال قراءتنا للدراسات النفسية حول تطور الحياة النفسية مع العمر تكفي لتبين لنا الخصوبة التي تنتظر من خوض هذه الارض الجديدة ، ومن البحث عن بعض أصول الادب وراء بروق السن وملامح الاعمار. فمما يتحدث عنه كثير من الباحثين مثلا بعض أوجه الشبه القائمة بين النتاج الفني للأطفال ، في مجال الرسم خاصة ، وبين نتاج بعض الفنانين الكبار من أمثال « Van Gogh فان جوج » . ومما يحدثوننا به ايضاً تلك القوة الخاصة التي تخلق لدى المراهقين والتي تمدّهم بقدرة هائلة على إدراك الصور وتخيلها وإبداعها ، مما يؤهلهم لانتاج فني مترع بالاخيلة ، نديّ بالصور [1] . ومما يتردّد أيضاً على ألسنة كثير من الادباء ان الفنان مراهقٌ إلى الابد وأنه يظل دوماً في صبوات المراهقة وشطحاتها ولا يفارق أخيلتها بل أوهامها . وليس المجال هنا مجال إثارة هذه المشكلة العويصة ، مشكلة الفوارق بين نتاج مردُّه إلى السن ونتاج مردُّه إلى روح أدبية أصيلة ؛ مشكلة التمييز بين تلك المحاولات المبعثرة التي ينتجها طفل في الرسم مثلا والتي هي بمثابة بروق خاطفة وأنفاس متقطعة وبين محاولات تصدر عن مذهب محكم مترابط الاوصال كمذهب « فان جوج Van Gogh » او « بيكاسو Picasso » مثلا . ومن الواجب ان نعترف ان المشكلة ليست سهلة بالمقدار الذي يخيّل إلينا ، واننا لن نذهب إلى حد القول بان جميع أنماط الفن ما هي إلا عودة إلى الطفولة أو مكث في سن المراهقة او معاودة

(١) أنظر خاصة ابحاث Jaensch وحديثه عن يسمّيه بالصور الصوئية الخمسية Optische Anschauungs - Bilder .

أحلام سن معينة . والذي نطمح إلى بيانه والوقوف عنده ، في المرحلة الحالية من الدراسات الادبية ، أمر أبسط من هذا وأقل طموحاً : وهو أن ندرك ما لسنوات العمر من أهمية في نتاج الاديب ، وان نبحث عن هذه السنوات في نتاجه ونبحث تطور هذا النتاج بتطور هذه السنوات ، وان نحاول خاصة ان نربط بين خصائص نتاج أدبيّ معيّن وخصائص بعض مراحل العمر : فبعض الادباء يتصفون دوماً بأدبٍ مراهق في جميع سنوات حياتهم ، وبعضهم يمثلون أدب الكهولة ، وبعضهم يعيدون على قرائهم ، من خلال صور جديدة وتركيب محدث ، ما مرّ عليهم في طفولتهم وما كان بينهم وبين آبائهم من صلات حب او بغض ، نفور أو إقبال .

بل نطمح إلى شيء أبعد من هذا ، فنودّ ألا ننسى في مثل هذه الابحاث التي تستهدف إدخال عنصر السن بين عناصر اللقاح الادبي ، ان نقيم وزناً للفوارق الجنسية اي بين طفولة أديب وطفولة أديبة ، ومراهقة كاتب ومراهقة كاتبة ... وان نذكر ان الطفولة تختلف بين ذكر وأنثى ، وأن صفات المراهقة تكاد تكون متباينة لدى الفتى والفتاة ، وان خصائص السن بشكل أعم ليست واحدة لدى الجنسين . الامر الذي يحملنا على التمييز بين ادب ينتسب إلى الطفولة المؤنثة وادب ينتسب الى الطفولة المذكرة ، بين ادب مراهق وادب مراهقة ، ونتاج يتّسم بسمات كهلة او كهل ، شيخة او شيخ . ومن الواضح ان ليس من المحتم ان ينتسب ادب الرجل الى الخصائص التي تتسم بها اعمار الذكر ، كما انه ليس حتماً ان ينتسب ادب الانثى الى الخصائص التي تتسم بها اعمار الانثى . فكثير من الادباء يقذفون بادب طفلة او مراهقة ، وكثير من الاديبات يقذفن بادب طفل او مراهق . بل ان من المهام الاساسية التي ينبغي ان يضطلع بها الباحث عن هذه النشأة « العمرية » لبعض فنون الادب ان يبيّن إلى اي حد يؤثر موقف الاديب او الاديبة من الجنس الذي ينتسب إليه او تنتسب إليه على نتاجها الادبي . فكثير من انواع الادب ما هو الا ثورة نفسية يثور بها الكاتب على جنسه (كونه ذكراً او انثى) ؛ ومن المأثور عن النساء خاصة انهن كثيراً ما يثرن على انتسابهن لجنسهن اللطيف ، ونقصد بهذه الثورة الثورة العميقة التي تكشفها الدراسة البصيرة لاحوالهم العميقة لا أقوالهم الظاهرة ؛ فكم مدافعة عن جنسها لا ينبىء دفاعها المغالي إلا عن ازدرائها لهذا الجنس ومحاولة إقناع ذاتية تقوم بها لتعوّض عن إيمانها اللاشعوري بنقصه . وكم مصطنع لمظاهر الرجولة تفضح مغالاته في التلبس بها فقده لها .

ومعنى هذا كله ان لكل سن خصائصها وان هذه الخصائص تختلف بين ذكر وانثى ، وأن من الطريف والخصيب ان نبحث عن هذه الخصائص العمرية وراء الانتاج الادبي . فمن الهام مثلاً ان نبحث عن صفة «النرجسيّة Narcissisme » عند بعض الادباء وان ندرك ان وجود هذه الصفات لا يفسّرها إلا وجود عنصر مراهقة مؤنثة لديهم . فالنرجسيّة ، أو تلك المحبة المرآوية التي نجد فيها المرأة مولعة بالاعجاب بذاتها والحديث عن نفسها حديث من يتمتع بصورته وجمالها أمام المرآة ، هذه النرجسية صفة ملازمة لطور المراهقة عند الفتيات ، ونجد اوضح صورة لها في يوميات الاميرة الروسية مريم باشكرتسيف Marie Bashkirtseff[1] حيث حدثتنا الاميرة عن امير احلامها الذي لا تعرفه والذي تسميه الامير « هـ... » ، وحيث تصارحنا بتلك النزعة المحببة الى قلب كل مراهقة ، نزعة محبة نفسها محبة « النرجس » لصورته في الماء (على نحو ما تروي الاسطورة اليونانية التي هي الاصل في نشأة كلمة « نرجسية ») ورغبتها في ان يركع لجمالها ألوف المعجبين وان يصفق لها جمهور من المتفرجين وان تقتني اكبر مجموعة من « القلوب المحطمة » بحبها .

وعنصر النرجسية هذه نجده واضحاً لدى كثير من الكتاب الرجال ، ولاسيما في العصر الرومانتيكي ، ولعله كاشف بارع ومفتاح عبقري نستطيع عن طريقه ان نتوصل الى معرفة البنية النفسية العامة للكاتب الذي نجد عنده أثراً منه .

وما يقال عن النرجسية يمكن ان يقال عن صفات اخرى عديدة يتصف بها طور المراهقة او غيره من الاطوار ، كثيراً ما تسم ادب اديب وتفصح عن سريرة كاتب .

ولا شك ان من شأن مثل هذه الدراسات المنقّبة عن الاصول العمريّة ، في ادب الادباء ، ان تيسر لنا الى جانب زيادة معرفتنا باصول الادب ، معرفة فعّالة منتجة تهدينا الى الاسلوب الذي ينبغي ان يتّبع في التوجيه الادبي للاشخاص . فمن الواجب على كل من يتصدى لرعاية إنسان ان يدرك الخصائص التي ينبغي ان تُفتّح لديه في كل سن ، والغنى الذي يصل اليه إن دُرّبت لديه المواهب الادبية الملازمة لتلك السن ، وإن صُحّحت عنده الانحرافات الادبية الناجمة عن هذه السن ايضاً .

1) M. Bashkirtseff : Journal d'un jeune artiste.

بل إن من انجع الوسائل لتصحيح بعض شذوذ الطبع واضطراب الخُلق ، في بعض مراحل العمر ، ولا سيما الطفولة والمراهقة ، ان يُشغل الشخص المصابَ ، بالانتاج الادبي الملائم لسنه ، وان يروّح عن ازماته بتغذية عواطف الخَلْق الادبي التي تحرّقه وتتوق عنده الى الظهور. وكثير من أزمات المراهقين والشباب ترجع الى حيرة عنصر الخَلْق في نفوسهم، وعدم اهتدائه الى طريقه وفقدان التوجيه اللازم له . ومن اخطر انواع التوجيه الادبي واشدها ضرراً توجيه الشخص الى ادب لا تفقهه سنه ، وفرض نمط من الابداع لديه لا يمت الى الحركة النفسية عنده بأية صلة . وغنيٌّ عن البيان ان اول قانون في توجيه اي شيء معرفة قوانينه ، وما تزال كلمة «بيكون» اصل كل عمل علمي: « إخضاع الطبيعة يستلزم الخضوع لها » اي معرفة قوانينها . ومن الطفولة حقاً ان نفرض اي نوع من انواع المثل الاعلى ـون ان نعرف أولاً وقبل ذلك ما هو واقعه الأدبي . فالمثل الاعلى هو مثل أعلى بالقياس الى واقع ادنى ، وما لم يُعلم هـذا الواقع لا يصح ان يبنى ذلك المثال .

وبعد ، هذه دعوة ، نخالها جوهرية، إلى نوع من الدراسات الأدبية النفسية لم يعرها الكتاب ما هي جديرة به من عناية . ولنا الأمل في ان تكون مصدر دراسات حيّة منتجة تعين على فهم كثير من الادباء ، كما تعين على تكوين كثير من الادباء . ولعلها تعين خاصة على اقتناص كثير من بذور الابداع الفني لدى بعض الاشخاص والحيلولة بينها وبين الانقراض إن هي لم تجد من يفهم مطالبها . إن المفكر المخلص للفكر لتذهب نفسه حسرات على الطاقات الادبية التي تخمد وتموت ؛ وإن المفكر المخلص للعلم لا تكفيه هذه الحسرات بل يهمه أن يبحث عن شفائها ؛ وشفاؤها لايكون إلا بمعرفة تيار الحياة النفسية معرفة علمية دقيقة وتوجيهها توجيهاً مستنداً إلى هذه المعرفة .

وقد يكون لنا ، بعد هذا البحث المجمل ، عود الى تفصيله، ونأمل أن يتاح لنا البحث في عناصره ، بدراسة أدب الطفولة والمراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة على التوالي .

دمشق — عبد الله عبد الدائم

مكتبات انطوان

وكلاء هاشيت

Représentant Hachette

جميع الكتب :

الثقافية والادبية والمدرسية

اكبر معرض كتب

لهـدايا عيد الميلاد ورأس السنة

في فرعيها

باب ادريس وشارع الامير بشير

بيروت

هلمن منكس الجديدة

La Nouvelle HILLMAN MINX

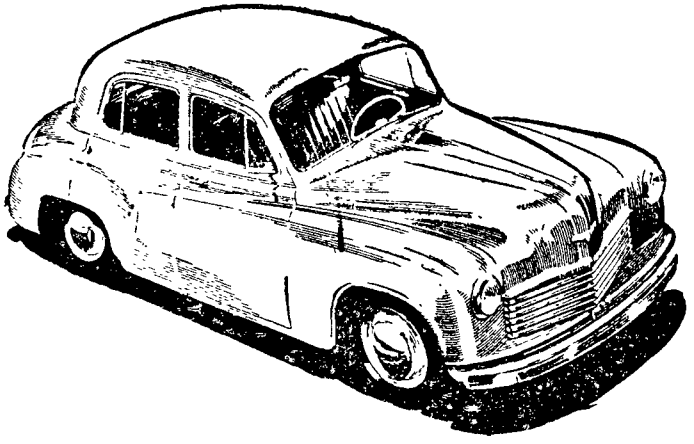

الوكلاء : شركة المقاولات والتجارة

بيروت — خان انطون بك